لمَ نحن أرثوذكسيّون؟

أليكسي إيليتش أوسيبوف[1]

في عصرنا هذا، نحن في وضعٍ لا نستطيع فيه فصلَ أنفسنا بالجدران أو بأيّة وسيلةٍ أخرى، عن التعدُّديّة الدينيّة غير المحدودة. لقد وجدَ الإنسان نفسَه في مواجهة تكاثرٍ للاتّجاهات الدينيّة، يقدّم كلٌّ منها مُثُلَه الخاصَّة وقواعد حياته وآراءه، بحيث لم تكن الأجيال السابقة لتحسدنا على ذلك. فالأمر كان أبسط منذ مدّةٍ قليلة؛ كان الاختيار الرئيس الذي يواجه الباحثَ واضحًا تمامًا: الدين أو الإلحاد. أمّا الآن، فنحن نواجه أمرًا أكثر تعقيدًا، وأسوأ من ذلك بكثير. الآن، قبل المجيء إلى الأرثوذكسيّة، على المرء أن يمرّ بثلاث خطواتٍ صعبة.

الخطوة الأولى هي: هل الله موجودٌ أم لا؟ إذا كان الشخص مقتنعًا بالفعل بوجود الله، فستنشأ مشكلةٌ أكثر صعوبة [هي الخطوة الثانية]. فثمّة العديد من الأديان، ولكن أيٌّ واحدٍ منها هو الصحيح؟ أيُّها يجب أن يعتنق؟ هل يجب أن يصبح مسيحيًّا؟ أو لماذا لا يكون مسلمًا، أو بوذيًّا، أو من أتباع كريشنا؟ لا أريد أن أذكر أديانًا إضافيّة، فثمّة العديد من الأديان والأديان الزائفة والطوائف والجماعات التوفيقيّة، وأنتم تعرفونها أفضل منّي. باختصار، يواجه الإنسان أسئلةً لا تنتهي: لماذا ولماذا ولماذا؟ هذه هي طبيعة الخطوة الأولى.

وبعد المرور بهذه الغابة الكثيفة من الأديان، والتوصُّل إلى الاقتناع بأنّ المسيحيّة حقيقيّة، يجِدُ الإنسان نفسَه أمام سؤالٍ لا يقلُّ تعقيدًا: ما الذي يمكن أن نسمّيه مسيحيّةً؟ فالمسيحيّة لها أشكالٌ عديدة. ماذا عليه أن يكون – أرثوذكسيًّا أم كاثوليكيًّا أم بروتستانتيًّا (لوثريًّا، خمسينيًّا، معمدانيًّا...)؟ إذًا، ليست الخطوة الثالثة بهذه البساطة هي أيضًا.

سأخبركم سرًّا، أو لنكون أكثر دقّة، سأذكره ولكن لن نخوض فيه لأنّ ذلك يتطلّب دراسةً أخرى: ثمّة أيضًا خطوةٌ رابعةٌ تتطلّب حماسةً روحيّةً خاصّة، ودراسةً مستمرّةً ومتأنّيةً للكتابِ المقدّس وكتاباتِ الآباء النسّاك، وتعبًا وجهادًا ضدّ أهوائكم ونقاط ضعفكم. إنّها الخطوة الأصعب، ولهذا لم أُسمِّها على الفور. تتمثّل في معرفة ما هي الأرثوذكسيّة، وما يعنيه أن تكون أرثوذكسيًّا. وقد أصبح هذا السؤال أكثر إلحاحًا هذه الأيّام.

[1] من محاضرة أُلقيت في مدرسة سريتينسكي اللاهوتيّة.

هذا هو الوضع الذي يواجهه الإنسان الحديث. علاوةً على ذلك، فإنّ ممثّلي الديانات الجديدة والقديمة، أو الطوائف غير الأرثوذكسيّة، لديهم بعامّةٍ فرَصٌ أكبر بكثيرٍ لنشر الدعاية لأفكارهم من خلال وسائل الإعلام، مقارنةً بنا نحن الأرثوذكسيّين.

دعونا الآن نمرّ عبر هذه السلسلة من الغرف التي تُفتَح أمام كلّ شخصٍ يبحث عن الحقيقة؛ ودعونا نلقي نظرةً على السمات الشائعة، لا بل الأساسيّة، التي توضح لمَ ينبغي للشخص ألّا يصبح مجرّد مؤمنٍ بوجود الله، وألّا يكون متديّنًا بشكلٍ عامّ فقط، وألّا يكون مجرّد مسيحيّ، بل أن يصير مسيحيًّا أرثوذكسيًّا - لمَ يجب عليه ذلك، وليس فقط يمكنه ذلك، ولأسبابٍ ذكيّة.

وهكذا، الخطوة الأولى هي: "الدين والإلحاد". في المؤتمرات، أقابلُ أحيانًا أشخاصًا متعلّمين بحقٍّ وباحثين، وليسوا ذوي تفكيرٍ سطحيّ؛ وأواجه دائمًا السؤال نفسه: هل الله موجود؟ مَن هو؟ أو: إذا كان الله موجودًا، فلمَ لا يدخل إلى محكمة الأمم المتّحدة ويعلن نفسه؟ حتّى إنّني أسمع: "لماذا نحتاج إليه؟"، فبماذا يمكنني أن أجيب عن ذلك؟

لا شكّ في أنّ السؤال الأساسيّ بالنسبة إلى الإنسان، بغضّ النظر عمّا إذا كان يدركه، أو إذا كان يستشعره ويختبره لاشعوريًّا، هو السؤال عن معنى الحياة. وأنا على يقينٍ بأنّ كلّ شخصٍ، والناس كافّةً، سوف يجيبون عنه على نحوٍ قاطعٍ قائلين: بالطبع، المعنى هو الحياة. وليست الحياة فقط، بل الحياة الواعية المليئة بالمشاعر الإيجابيّة، من رضا وفرح ومحبّة وما إلى ذلك. وكيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك؟ لم يعتبر أحدٌ قطّ أو يستطيع أن يصرّ على أنّ المعنى النهائيّ لحياة الإنسان يمكن أن يكون النوم الأبديّ أو الموت.

وهنا يكمن الحدّ الفاصل وغير النافذ بين الدين والإلحاد. تؤكّد المسيحيّة أنّ هذه الحياة الأرضيّة ما هي إلّا البداية والشرط والوسيلة للاستعداد للمسيحيّة الأبديّة؛ لذلك، هيِّئ نفسكَ أيّها الإنسان، فإنّ الحياة الأبديّة تنتظرك. علاوةً على ذلك، تُقدّم المسيحيّة كلَّ ما هو ضروريّ لدخولٍ مكرَّمٍ إلى الحياة الأبديّة. أمّا الإلحاد، فماذا يؤكّد؟ آمِنْ، أيّها الإنسان، أنّه لا يوجد خلود، ولا إله، ولا نفْس. فالإنسان فانٍ مثل جسده. لذلك، في التحليل النهائيّ، ينتظرك الموت أنتَ والبشريّة جمعاء. أيُّ رعبٍ، أيُّ تشاؤم، أيُّ يأس! إنّ الكلمات بذاتها تجعل الأبدان تقشعرّ: "أيّها الإنسان، ينتظرك الموت الأبديّ!" (وأنا لا أتحدّث حتّى عن تلك الحجج الغريبة

التي يطرحها **الاعتقاد** المُلحد بعدم وجود الله). هذا التأكيد وحده يكفي لجعل النفس البشريّة ترتعد. لا، أنقِذني من **اعتقادٍ كهذا**.

عندما يتوهُ الإنسان في الغابة، يبحث عن الطريق إلى المنزل. يرى فجأةً شخصًا ويسأله: "هل من طريقٍ للخروج من هنا؟". فيتلقّى الردّ: "لا، ولا تبحث عنه حتّى. اعتدْ على البقاء هنا". فهل سيُرضيه مثل هذا الجواب؟ إنّه مشكوكٌ فيه. ألن يستمرّ في البحث؟ وعندما يَجِدُ شخصًا آخر يقول له: "نعم، ثمّة مخرج، وسأريكَ الإشارات التي يمكنك بواسطتها الخروج من هنا"؛ أليست هذه الإجابة هي التي سيَثق بها الشخص الضائع على الأرجح؟ يحدث الأمر نفسه في مجال عمليّات البحث عن الآراء السائدة، عندما يَجِدُ الشخصُ نفسَه في مواجهة الدين والإلحاد. وبينما تكون شرارة البحث عن الحقيقة ومعنى الحياة محفوظةً داخل الإنسان، لا يستطيع نفسيًّا قبول المفهوم الذي يؤكّد أنّه متّجّهٌ كفردٍ، وتاليًا جميع الناس، إلى الموت الأبديّ. إذًا، ما هو المغزى من الأخلاق أو مُثُل الخير أو بذل الذات أو محبّة الآخرين، إذا كنّا سنموت غدًا؟

وثمّة حجّةٌ للإلحاد لا تقلُّ فتكًا، وهي السؤال التالي: "ماذا عليّ أن أفعل للتأكُّد من عدم وجود إله؟ هل يجب أن أصبح عالمًا؟ لكن هناك العديد من العلماء الذين يؤمنون بالله. هل يجب أن أصبح فيلسوفًا؟ هناك العديد من الفلاسفة الذين يؤمنون بالله". ولكن من دون إجابةٍ عن هذا السؤال، يصبح الإلحاد مجرّد **إيمانٍ أعمى**. مع ذلك، الجواب واضح: ثمّة طريقةٌ واحدةٌ فقط لكي نتأكّد من وجود الله أو عدم وجوده، وهي السَّير في طريق الحياة الدينيّة. ببساطة، لا توجد أيّة طريقةٍ أخرى.

لقد ذكرتُ جانبًا واحدًا فقط، وهو جانبٌ ضروريٌّ جدًّا من الناحية النفسيّة، أعتقد أنّه يكفي لجعل كلّ شخصٍ ذي نفسٍ حيّةٍ يفهم أنّ وحده الرأي الذي يقبل أساسًا له الكائنَ الذي نسمّيه الله، هو الذي يمكّننا من التحدّث عن معنى الحياة.

إذًا، أنا أومن بالله. سنعتبر أنّنا مررنا بالغرفة الأولى.

الآن سأذهب إلى الغرفة الثانية... لكن، يا إلهي! ماذا أرى هنا؟ إنّها مليئةٌ بالناس، وكلّ واحدٍ منهم يصرخ: "أنا وحدي مَن يملك الحقّ". المسيحيّون والمسلمون والكونفوشيوسيّون والبوذيّون واليهود، والله يعلم مَن غيرهم.

وها هو المؤمن بالله يقف هناك، بين هؤلاء المؤمنين كلّهم، محاولًا أن يعرف مَن هو على حقّ، ومَن يجب أن يصدّق. هذه مهمّة صعبة...

❖ الخطوة الثانية: المسيحيّة حقيقيّةٌ

أيُّ دينٍ هو الصحيح؟ على الأرجح ذاك الذي يستطيع أن يُثبِتَ أصلَه الإلهيّ، لأنّنا قد حسَمنا أنّ الله هو الحقّ. وللقيام بذلك، يجب على الدين أن يقدّم دليلًا موضوعيًّا على أنّ تعاليمه لم تُستَقَ من مكانٍ آخر، أو تُبنَ على بعض الأنظمة الدينيّة والفلسفيّة. وهكذا، فإنّ المسيحيّة (وهي وحدها) تلبّي هذا المطلب. إذا استطعتَ إجراء مناقشةٍ مع ممثّلي الديانات الأخرى حول هذا الموضوع، فسوف تسألهم: "ما هي الحجج التي لديكم لتأكيد حقيقة دينكم؟"، ولن تتخيّل مدى عدم تمكّنهم من الإجابة عن هذا السؤال.

لدى المسيحيّة سلسلةٌ كاملةٌ من الحُجج الموضوعيّة - وأؤكّد أنّها موضوعيّة- التي تشهد لها على أنّها دينٌ مصدره الله على وجه التحديد. قد يبدو تأكيدٌ كهذا قويًّا جدًّا، وبالتالي فهو يتطلّب وقتًا خاصًّا لتوضيحه توضيحًا صحيحًا. مع ذلك، سأقدّم الآن البراهين التالية فقط.

- **البرهان التاريخيّ:** يُظهِرُ هذا البرهان ببلاغةٍ أنّ المسيحيّة لم تكن لتصمد وتستمرّ من دون مؤازرةٍ إلهيّة خاصّة، في ظلّ ظروف الاضطهاد القاسي الذي عاناه المسيحيّون مدّة ثلاثة قرونٍ على يد اليهود والدولة الرومانيّة.
- **البرهان الروحيّ والأخلاقيّ:** يتحدّث هذا البرهان عن فهمٍ جديدٍ تمامًا "مخالفٍ للدين" لخلاص الإنسان - فأوّل شخصٍ دخل الفردوس كان لصًّا.
- **البرهان العقائديّ:** يحلّل هذا البرهان جميع الحقائق الأساسيّة للمسيحيّة (عن إله المحبّة، إله الثالوث، الكلمة، التجسُّد، المخلّص المصلوب، قيامة المسيح، الخلاص، الأسرار، الإسخاتولوجيا) التي تعاكِسُ تعاليم الأديان والأنظمة الفلسفيّة السابقة. يوضح هذا التحليل أنّ حقائق الإيمان المسيحيّة هي كلّها جديدةٌ في التاريخ الروحيّ للبشريّة. حتّى فريدريك إنجلز كان عليه أن يعترف بأنّ المسيحيّة "ناقضت بشدّةٍ جميع الأديان التي كانت موجودةً قبلها". ولكن إذا كان ذلك صحيحًا، فمن أين جاءت؟ لا سيّما إذا أخذتُم في الاعتبار أنّ يسوع المسيح ورسله، ومعظمهم من

الصيّادين البسطاء، كانوا أشخاصًا غير متعلّمين ولم يكن بإمكانهم تبنّي مثل هذه الأفكار النبيلة من مصدرٍ خارجيّ؛ وبخاصّةٍ، لم يكن بوسعهم تأسيس مثل هذا الدين الجديد بقوّة عقولهم الخاصّة. لذلك، لم يتبقَّ لنا سوى شيءٍ واحدٍ للقيام به – وهو الاعتراف بألوهيّة المسيح، وتاليًا بحقيقة دينه.

يتبع…

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Alexei Ilyich Osipov (2010). “Why Are We Orthodox?” *Pravoslavie.ru*